شَكْسبير وقُسّ بن سَاعِدَةَ الإيَادى

بقلم طه عبد الفتاح
المدرس الأول للغة العربية بينها الثانوية

كنت أجيل النظر فى كتاب « الكنز الذهبى » Golden Treasury ، وهو كتاب إنجليزى ، جامع لطائفة كبيرة من المختارات الشعرية الإنجليزية ، التى انتخبت من كلام فطاحل الشعراء فى عصور الأدب المختلفة ؛ فعثرت على قصيدة من قصائد شكسبير ، وقف عندها النظر ، لا وقفة الاستحسان والإعجاب بها ؛ فإن ذلك الاستحسان كان موجوداً ، ولكن لم يكن هو الذى أوقف نظرى . بل الذى أوقف نظرى أنى شعرت كأنى فى سوق عكاظ أصغى إلى قس بن ساعدة الإيادى وهو على بعيره الأورق ينشد القوم أبياته المشهورة ، التى أنشأها فى ختام خطبته المعروفة ، تلك الخطبة التى نظر فيها إلى مشاهد الكون نظرة اعتبار وموعظة . أذكرتنى قصيدةُ شكسبير أبيات الإيادىّ ، لأنه نهج طريق أسلوبه ، وإن اختلف اللسانان . فأحببت أن أترجم للسادة الكرام القارئين قصيدة شكسبير ، وأن أنظم الترجمة شعراً ؛ وآثرت أن أصوغها فى البحر والقافية اللذين آثرهما الإيادىّ ؛ لأزيد التشابه بين الشعرين قوة وجلاء .

وسأعرض قصيدة شكسبير مترجمة ، بعد عرض أبيات قس ؛ ثم أتبع ذلك بقليل من الموازنة بين الكلامين والشاعرين .

قطعة قس بن ساعدة

فى الذاهبين الأوّلين من القرون لنا بَصَائِرْ
لما رأيت مواردا للموت ليس لها مصادرْ
ورأيت قومى نحوها تمضى : الأكابر والأصاغرْ

لايرجع الماضى إلَـــىَّ ولا من الباقين غابرْ (١)
أيقنت أنى لا محَا لةَ حيث صار القوم صائرْ

قصيدة شكسبير

الدهر والحبّ (٢)

— ١ —

لما رأيت الدّهر طا حَ بما بَنَى العُصُرُ الغوَابرْ
بيدٍ مُـــدَمَّرَةٍ لما قد شيّدته من المفاخرْ
دكّ البروج الشامخا ت فأصبحَتْ دِمَناً دوائرْ
وأهاب بالعادىّ من شبَهٍ فلبّى وهو صاغرْ (٣)

* * *

ورأيت جيش اللجّ يَفـــتِكُ بالجَدَالة وهو ثائرْ (٤)
يبتزّ من جنَباتها غُنماً ويبسطُ حُكمَ ظافرْ
والأرضَ دائبةً لها فى صَوْلها جَهْدُ المثابرْ
تسطو على اللجّىّ مخـــرزَة لربح منه وافرْ
إن يَغْتنمْ تَغرَمْ، وإن تُصِبِ المكاسب فهو خاسرْ

* * *

(١) بمعنى باق . وقد تأتى بمعنى ماض

(٢) العنوان بالإنجليزية : Zime Ans Love وكلمة love تطلق على الحب بضم الحاء وهو المحبة والعشق ، وعلى الحب بكسر الحاء وهو المحبوب ، وسياق القصيدة صالح لإرادة أى معنى منهما .

(٣) الشبه والشبهان : النحاس الأصفر ، والظاهر أن التمثيل به دون سائر المعادن لأن بعض الغابرين استعمله فيما خلف من آثار ، لطول تحمله وبقائه .

(٤) الجدالة الأرض

ورأيت زهرة دولة ترنو لبهجتها النواظرْ
لبَشتْ تداوَلُ بين ذى حظّ وذى نحس مغادرْ
ولرّبما وَهَنَت فدا رت بالبِلَى فيها الدوائرْ

***

ألقَى الدّمَارُ علَيّ در ساً أنْ أفكّر فى المصايرْ
وعلمت أنْ سيَمدُّهُ جا رحة تروّع من تبادرْ (١)
فتبزّنى حبّى وذَا ماصرت من دهرى أحاذرْ
وعلمت أنّ يد البِلَى كالموت يخطف من يُسَاورْ
لا يَنْتَقِى أحداً فَيَجْتاح الأكابر والأصاغرْ

— ٢ —

دانت له صُمُّ الصّفَا وعَنَا له يَبَسٌ وزاخرْ (٢)
وأطاعه الشّبّهَانُ لَيْسَ على توقّيه بقادرْ
أنّى يقاومُهُ الجمَا لُ إذاً فتَعْدُوهُ الخاطرْ
والحُسْن ليس بفاضل فى بأسه غَضّ الأزاهرْ؟

***

أنّى لمسول النّسيم وقد سَرَى حُلوَ المناشرْ
أنْ يبتغى سُبُلَ السّلاَ مة والزمان له محاصرْ
حفّتْه بالهَلَكَاتِ أيّ ام مدمّرة قواسرْ
أعيتْ جليد الصخر وَهْوَ كعهده صلب المكاسرْ
وسمَتْ على الفولاذ فَهْوَ إزاءها فى البأس خائرْ؟

***

(١) الجارحة اليد
(٢) صم الصفا : الحجارة الصلبة . عنا : خضع . زاخر : بحر

وَيلِى ! فتلك هواجس تسرى فترتاع الخواطرْ
آهِ ! فأين عَنِ الزما ن وكَنْزُهُ بالدّر عامِرْ
تَكْتَنُّ لؤلؤة يَرَا ها عنده أسنَى الذخائرْ ؟
بَلْ مَنْ له فى الناس كـ فـ بأسها فى القبض قاهرْ
تَعْتَاقُ رِجْلَ الدهر وهـ وَ بها إلى التدمير باكرْ ؟
بل من يصون الحسن عن فَتَكَاتِ أيديه الجوائرْ ؟

***

ياحَسْرَتَا ! ما فى الورى أحد لِصَرْف الدهر حاظِرْ
لو كان فى المعقول أوْ فى مُكنَةِ الأمر المياسرْ
أن يستمرّ الحبُّ يُشْـ ـرِق وهو بالأنوار زاهرْ
فى حين يغمره من النـ ـقْسِ اليَلَنْجُوجىِّ غامِرْ (١)
لعددت فى إمكاننا أن نتقى شَرَّ الأداهرْ

***

أليس ذلك عجبا ؟ وكيف لا يعجب من يرى الضدين يجتمعان فيأتلفان ؟ رجلان امتزج شعورهما ، وعقلهما ، ومنطقهما ؛ حتى كأنهما نفس واحدة ، ذات شعور واحد ، وعقل واحد ، وتفكير واحد ؛ على الرغم من سعة البون ، وتشعب وجوه الاختلاف بينهما . أما قس فهو سامى الجنس . عربى الشعب ، من القاطنين بالأصقاع الحارة الصحراوية ، ذات الجو اللافح ، والشمس المشرقة المحرقة ، والسماء الصافية ، كان يعيش فى القرن السادس الميلادى ؛ فى بلاد بدوية ، يسيطر عليها نظام القبيلة ، ولا أثر فيها للحضارة والمدنية ، ولا لدراسة العلوم وبث الثقافة ، فلم تكن له مدرسة يلقن فيها علمه إلا حوادث الدهر تصقل قلبه ، ومشاهد الكون تبهر لبه ، بما زانها به البارىء المصور ، من جمال فائق ، ونظام رائع ، وحكمة مبصرة .

(١) القس اليلنجوجى : الحبر الأسود .

وأما شكسبير فهو آرى انجليزى من القاطنين بالجهات التى يغلب عليها البرد القارس ، وتعلوها السماء الكدرة المكسوة بالغمام ، كان يعيش فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وقد تمتع بما لم يتمتع بمثله قس من الحياة فى ظل حضارة نامية ، وثقافة واسعة ، ودولة قوية منتظمة .

ولكن ذلك ليس بعجيب ، إذا نظرنا إلى أن الطبيعة البشرية لا يختلف الناس فى جوهرها ، وإن اختلفوا فيما يصطبغ به ذلك الجوهر من ألوان تصطنعها المؤثرات الخارجية المتباينة . فللنفوس الإنسانية صفات تشترك فيها ، كما تشترك الأجسام فى كثير من صفاتها الجسمية ، فالشعور المطلق مشترك ، والمنطق العقلى مشترك وأسلوب التعبير عن ذلك المنطق مشترك ، فإذا سلمت النفوس من العلل التى تؤثر فى تلك الصفات رأيت مظاهرها متشاكلة متشابهة .

فاتفاق هذين الشاعرين فى شعورهما وتفكيرهما وأسلوبهما إن هو إلا مظهر من مظاهر تلك الفطرة الأنسانية الجوهرية المشتركة التى صار بها الأنسان إنسانا مميزا عما عداه .

أحب قس أن يعرف مصير حياته التى يحرص عليها ، ويشغف بها ، وأحب شكسبير أن يعرف مصير محبوبه ، ومآل ما أولع به فؤاده ، وما ملك لبه من الحياة والجمال ، فكان ذلك مظهر التشابه فى الأحساس .

وكما اتفق الشاعران فى الإحساس اتفقا فى التفكير وطريقته ؛ فقد سار كل منهما من المحس المشاهد إلى النتيجة التى استنبطها ؛ سالكا فى ذلك سبيل التتبع والاستقراء .

واتفقا فى تلك النتيجة ، وحكم كل منهما بأن مصير من تعلق به وحرص عليه الفناء .

واتفقا فى أسلوب التعبير عند ما أرادا أن يبرزا ماعرفا من الحكم ومقدماته فى صورة من الكلام . فإذا أغفلت البيت الأول من كلمة قس رأيت هذه القطعة لا تزيد على جملة شرطية بدأها الشاعر بأداة الشرط (لما) ، وعطف على فعل الشرط ما أراد إلى أن انتهى دور الاستقراء فأنهى العطف بذكر الجواب . وكذلك

سار شكسبير فى النبذ الأول من قصيدته ، كأنما كان ينظر إلى مارسم قس ويحاكيه فى الأسلوب محاكاة دقيقة .

ويمتاز قس بالسبق إلى الفكرة وإلباسها هذا اللباس المنطق . فى صورة شعرية رائعة ، تلتصق بشعور كل إنسان ، وتتصل بمواطن التفكير فيه . وهنا تعرض للعقل فكرة لا يمكنه مقاومتها سواء أكانت صائبة أم طائشة . فمن ذا الذى يحول بين العقل وبين أن يقول : إن شكسبير متأخر فى الزمن عن الايادى ، فربما وصل إليه شيء من الأدب العربى مترجما إلى الانجليزية : إما عن العربية بوساطة من أخذ العلم والأدب عن عرب الأندلس من الانجليز ، وإما عن لغات أخرى كالايطالية وغيرها من اللغات الأوربية التى رحل أبناؤها إلى الأندلس أيام ازدهار دولة العرب بها . قد يكون ذلك الخاطر صادقا فيضاف بذلك إلى قس فضل جديد : وهو فضل أستاذيته لشكسبير . وقد يكون وهما محضا ، فيخص قس بفضل السبق ، وتكون مشاركة شكسبير له فى الفكرة وتصويرها صورة عجيبة من صور توارد الخواطر .

ويحمل أن نشير إلى مبلغ تأثير البيئات المختلفة فى كلام الشاعرين ، متوخين فى ذلك سبيل الايجاز والاختصار ، والاكتفاء بالمثل القليلة .

حين نقرأ فى قطعة الايادى : المصادر ، الموارد ، قومى . يسرع إلى أذهاننا كثير من صفات الخصائص البدوية الصحراوية ، كورود الابل الى الآبار ، وصدورها عنها بعد الشرب ، وكنظام القبيلة الذى يقسم الأمة الواحدة الى أقوام تنسى الأفراد صلتهم العامة بأمتهم ، وتقوى فى نفوسهم ذكر الصلة الخاصة بالقوم ، حتى إن قسا لم يكد يتجاوز استقراؤه أبناء قومه .

أما شكسبير فترى فى دقة معانيه ، وفى ترتيب فكره ، وتنسيق خياله ، صورة ناطقة للحصافة العقلية التى كانت من جهة مظهر العبقرية الخاصة ، ومن جهة أخرى ثمرة الثقافة القويمة المنتجة .

وترى فى ذكر البروج وعفائها ، وسبائك الشبه ودثورها ، آية التأثر بما فى البلاد المدنية التى تحوى من وسائل القوة والذكرى مالا يراه الايادى فى بلاده البدوية .

وتشاهد فى ذلك وفى حديثه عن العصر الخوالى ما يدل على تأثره بدراسة التاريخ ، كما ترى فى تصوير التنازع بين البحر والبر أثر ما تعلم من علم الجغرافية الطبعية . أما تأثره بالحياة السياسية فيبدو جليا واضحا عند ما عرض لذكر الدولة وتعاقب الحاكمين عليها ، وأنها قد يسطو عليها الضعف فيسرع إليها الانحلال والفناء .

ثم انظر إليه لا يقف عند ما وقف عنده الإيادى من معرفة المصير الذى يصير إليه ، بل يتجاوز ذلك إلى الحكم بأن هذا المصير هو الغاية الحتمية لكل مخلوق .

وبعد أن رسخ ذلك الحكم فى نفسه رسوخا لا مرية فيه أخذ يتحدث عن مبلغ تأثر المخلوقات المختلفة بعبث الدهر ؛ جاعلا نواة ذلك البحث محبوبه الذى أغرم به غراماً شديدا ، ولعل محبوب شكسبير فى القصيدة لم يكن سوى الجمال ؛ فان شكسبير لم يعين محبوبه فى القصيدة تعيينا واضحا ، بل جعل الكلام صالحا للانطباق على كل ما يسمى محبوبا ، وذلك شأن العبقريين من الحكماء الذين تنزع عقولهم إلى الكليات العامة . ذكر شكسبير الجمال ، وأن مقاومته للدهر الذى يتغلب على الأحجار والمعادن والبر والبحر لا بد أن تكون ضعيفة لا تزيد على مقاومة الزهرة الناضرة ، وذكر النسيم العليل ، وان مقاومته لما تحاصره به الأيام من تحطيم وتدمير لا تكاد تذكر إذا كانت الصخور على قوتها والفولاذ على متانته تخضع لسطوة الأيام فتدمرها تدميرا .

ثم يشكو شكسبير نزوع نفسه إلى ذلك التفكير المؤلم ، ثم يسأل عن القوى التى تستطيع مدافعة الدهر ورد صولته ، ثم يجيب عما سأل فيقول : إن ذلك ليس فى وسع مخلوق ، وان اتقاء فتكات الزمان لا يمكن ولا يصح فى حكم العقول إلا إذا صح أن يظل حبه وهو فى المداد الأسحم الحالك مضيئا مشرقا كما كان مشرقا مضيئا من قبل .

إن جل ذلك ما كان ليمر بخاطر قس الايادى ، لأن ظروف حياته البدوية لم تكن لتعينه على ذلك ، ولو كان قد قسم له أن يحيا مثل حياة شكسبير لربما جاراه فى المضمار ، وربما حاز قصب السبق .

طه طه عبد الفتاح